غياب العدالة وتأثيره على الأفراد
(فى فكر أفلاطون)

د. هانى محمد شاد (*)

مقدمة

كانت فكرة العدالة عند أفلاطون فكرة محورية وقد لا يكون هناك مبالغة لو قلنا أن هذه الفكرة هى التى حركت شغف أفلاطون للمعرفة والحكمة ووجهت حركته الفكرية وخاصة بعد أن تسبب النظام الديمقوقراطى الأثينى فى اهتزاز كيانه عندما حكم على أستاذه سقراط بالموت الأمر الذى جعل أفلاطون ينتقل بروحه من مجال العمل السياسى أو الاشتغال بالسياسة كما هو متوقع إلى التفكير فى المعرفة والحكمة وفهم الواقع، وهذا ما جعله ينشأ المدرسة التى حاول من خلالها تربية الحكام أو إيجاد الحاكم الفيلسوف.

تمثل فكرة العدالة عند أفلاطون كما نعتقد البعد الأساسى للخلاص الإنسانى كما ينشده الفيلسوف، وهى بمثابة حجر الزاوية فى الخلاص الفردى والجماعى لدى الإنسان، ولذا فالإنسان لن يستقيم ولن يهدأ من التوتر والقلق إلا إذا استطاع أن يقيم العدالة فى داخله، والعدالة فى داخله معناها كما يرسمها أفلاطون فى محاورات عديدة ـ فيدون وفايدروس والجمهورية ـ هى أن يتغلب الجانب العقلى فى الإنسان على الجانب الغضبى الانفعالى والجانب الغرزى والشهوى.

والباحث فى هذه الدارسة القصيرة لا يبغى تقديم تفسيرا لفكرة العدالة عند أفلاطون أو مفهوم العدالة عنده وكيف صاغ هذا المفهوم على فترات متقطعة، وخاصة أن كثيرين من

(*) آداب القاهرة ـ فرع الخرطوم.

الدارسين لفلسفة أفلاطون يعلمون أنه حاول إيجاد مفهوم للعدالة ورسم هذا المفهوم فى محاورة هامة من محاوراته وهى محاورة الجمهورية، التى يقدم فيها الحوار على أساس الإجابة عن السؤال ما هى العدالة؟

ونجد فى محاورة الجمهورية أن العدالة فى المجتمع نابعة من العدالة فى الفرد وبالتالى يرسم أفلاطون الخطوط الأساسية لفكرة العدالة فى المجتمع نابعة من فكرة العدالة الفردية. فإذا كانت النفس الفردية تتألف من ثلاث قوى هى العاقلة، والغضبية، والشهوية، فضيلة كل منها بالترتيب هى الحكمة، والشجاعة، والعفة، فالعدالة كما يفهمها أفلاطون تقتضى الاتساق والتناغم بين هذه القوى الثلاث ولا يحدث هذا الانسجام، وذلك الاتساق إلا عندما تسير القوى العاقلة على القوتين الآخرتين وهما الغضبية والشهوية، فإذا لم يحدث هذا الانسجام فإن الإنسان يظل خاضعاً لقواه الغضبية الانفعالية والعاطفية منقادا لقواه الشهوية والغزيرية والتهالك على الملذات واشباع الأهواء والميول، ولذا فالنتيجة أنه مالم يتحول الحكام إلى فلاسفة، أى تتغلب القوى العاقلة أو يحكم الفلاسفة بأنفسهم فإن المدينة أو الدولة سوف تنقلب بين أنظمة من الحكم مختلفة كلها لا يتحقق فيها العدالة وتختلف فى الظلم بين الكثرة والقلة وتبدأ هذه الأنظمة بالحكومة التيموقراطية ويعقبها الأوليجارشية تليها حكومة الديمقراطية حتى نصل إلى حكومة الطغيان أو الاستبداد باعتباره أكبر دليل على تغليب القوى الشهوية والغريزية فى المجتمع على بقية القوى الأخرى.

إن ما قلناه سابقا يأتى بمثابة الإطار الفلسفى الذى يدور فيه صراع العدالة أو تحقيق العدالة كما يرسمه أفلاطون فى محاورة من كبرى محاوراته وأهمها وهى محاورة الجمهورية، والباحث يرى، وخاصة وأننا أمام فيلسوف فنان مثل أفلاطون كتب نظامه الفكرى فى إطار أو قالب فنى هو المحاورة والتى تشبه إلى حد كبير المسرحية والتى كان فى معظم الأحيان يضع فيها سقراط باعتباره الشخصية الرئيسية، يعتقد الباحث أننا نستطيع بشىء من التأمل والقراءة المتأنية لمحاورات أفلاطون وخاصة الجمهورية وبشىء من التأويل لبعض أفكار أفلاطون التى ناقشها فى بعض محاوراته وللمعانى المستخلصة من هذه المحاورات أو المكنونة فى بعض الشخصيات مثل أقراطيلوس وبارمينيدس وسقراط أن نكتشف تأثير غياب العدالة على الأفراد وخاصة أننا أمام فيلسوف يرى أن أخلاق المجتمع هى أخلاق الفرد، ولذا أسس الأخلاق العامة أو السياسة العامة على غرار الأخلاق الفردية ورأى فى نظامه الفكرى أن العدالة فى الدولة هى على غرار العدالة فى الفرد.

يظن الباحث أن قراءة متأنية لبعض محاورات أفلاطون، وخاصة محاورة الجمهورية وفيها على الأخص أسطورة الكهف أن نتبين ملامح تراجيديا إنسانية تجرى على الأفراد فى

حالة غياب العدالة عنهم، وقد نلمح ذلك بشكل خاص فى تحول المجتمع إلى مجتمع لا هى غرزى أو الصراع بين الناس على السلطة والنفوذ والمصالح أو ظهور فئة من الناس تستطيع فهم ما يدور بين الناس دون علم منهم وتقوم بدور المعلم لطريق الصراع والتنازع أو فى الصراع بين الجهل والاستنارة كما هو الحال فى الشخص المستنير الواعى بما يحدث فى المجتمع من أخطاء ويريد أن ينبه ويحذر الناس وبيان طرق سلوك الناس تجاه هذا الشخص حتى التأمر عليه والتخلص منه.

هذا البحث إذن لا يبغى تقديم تفسيرا لفكرة العدالة عند أفلاطون، ولكنه يعنى بتقديم جانب مستمد من قراءة متأنية لمحاورات أفلاطون يقوم فيه بتوضيح ما ينتج عن غياب العدالة فى المجتمع، وبالتالى فإن هذا البحث يمكن أن يساعد فى طرح رؤية فنية درامية لمحاورات أفلاطون عامة، وما تقدمه لنام حاورة الجمهورية بصفة خاصة وهى تعرض لنا نموذج لهذا الفن الدرامى فى أسطورة الكهف والتعليق عليها ورؤية درامية لبعض شخصياته للتعرف على المصير المأساوى للإنسان فى ظل غياب العدالة.

المقصود بغياب العدالة

يرى أفلاطون أن الدولة التى يحكم فيها الفيلسوف أو يتحول الحاكم فيها إلى فيلسوف هى الدولة الوحيدة القادرة على تحقيق العدالة بين الناس لأن العدالة هنا تنبع لدى الحاكم من رؤية مباشرة ويقينية إلى حقيقة مفهوم العدالة وليس عن ظن أو عن رؤية غير واضحة، ولما كانت العدالة عند أفلاطون تقوم على أساس العدالة الفردية أو الموجودة فى الفرد فإنها تقوم على أساس غلبة الجانب العقلانى على الجوانب الغضبية الانفعالية أو الجانب الغرزى والشهوى فى الإنسان كما يقرر أفلاطون فى تفسيره لمفهوم العدالة فى محاورة الجمهورية، فإذا كانت النفس الفردية تتكون من ثلاث قوى هى العاقلة والغضبية والشهوية فإن العدالة فى الفرد تتحقق حين يحدث الانسجام بين هذه القوى الثلاث بفضل سيطرة القوى العاقلة وفضيلتها الحكمة على القوى الغضبية وفضيلتها الشجاعة والقوى الشهوية وفضيلتها العفة، هكذا أيضا تكون العدالة فى الدول فلابد من سيطرة القوى العاقلة فى الدولة على القوى الأخرى الغضبية مثل الجند والعسكر والغرزية الشهوية مثل الحرفيين وأصحاب المهن وإلا لم تتحقق العدالة فى الدولة لو ترك الأمر لأصحاب القوى الأخرى غير قوة الحكمة أو القوة العاقلة، ولذا يقول أفلاطون أنه:

«ما لم يصبح الفلاسفة ملوكا فى بلادهم أو يصبح الذين نسميهم ملوكاً وحكاماً فلاسفة جادين متعمقين فلن تنتهى الشرور والإثام بين الناس».[1]

أفلاطون برغم اعتقاده أن هذه الدولة التى يقودها الفيلسوف صعبة التحقيق، ولكنها غير مستحيلة وإن هؤلاء القادرين على خلق مجال الفلسفة قلة نادرة من الناس ذوى القدرات الخاصة والمواهب إلا أن هذه الدولة فقط فى رأى أفلاطون هى التى تدفع الناس للبحث عن الكمال وعن الحكمة وماعداها لن يكون دافعاً للناس فى البحث عن القيم الخيرة والأشياء الجميلة، ويؤكد ذلك بقوله:

«أن أية دولة أو أى دستور أو أى فرد لن يبلغ الكمال مالم تدفع الظروف المواتية هذا العدد الضئيل من الفلاسفة الذين لم يتطرق إلا نفوسهم الفساد إلا تولى الحكم».(٢)

إن الدولة المثالية التى تحقق العدالة وتدفع الناس للبحث عن القيم الخيرة والجميلة إنما تتصف بهذا الوصف لأنها تمثل طرازاً من العقل يتحقق فيه اتصاق كامل بين الملكات والدولة الفاسدة تتصف بالفساد قلة أو كثرة لأنها تمثل طراز من العقل اختل فيه هذا الاتصاق قلة أو كثرة، ولكن إذا كان الأمر هكذا فإن الأمل الوحيد لإصلاح الدولة هو إعادة اتصاق الملكات فى عقول أعضائها.

يعتقد أفلاطون إذن أنه مالم تحكم دولة الفيلسوف أو يتقرر حكم الفلاسفة فإن أى دولة أخرى غير هذه الدولة لم تحقق العدالة فكل أنواع الدول الأخرى الموجودة أو التى تعقب دولة الفلسفة كلها لا تحقق العدالة كاملة سواء كانت دولة التيموقراطية أو الألويجارشية أو الديمقراطية أو الطغيان بشكل خاص وهو ما يجسد وصول الغريزة والشهوة إلى أقصى دوجة لها. وما يلى يوضح ماذا يحدث للأفراد إذن فى ظل غياب العدالة:

(أ) الصراع على السلطة والمنافع

يؤكد أفلاطون أن أول ظاهرة من ظواهر غياب العدالة بين الناس هى ظاهرة تفشى الصراع بينهم، هذا الصراع الذى يصفه أفلاطون بأنه صراع على السلطة والنفوذ وبالرغم من أن الناس كما يعتقد أفلاطون فى معظم الأمر غير قادرين على السلطة أو الإدارة أو الحكم بسبب عدم الوعى والجهل وعدم المعرفة، وهى الأشياء الأساسية التى تتطلبها السلطة أو الحكم إلا أنهم يتنازعون ويتصارعون من أجل الوصول إلى المناصب العليا أو كراسى السلطة والإدارة ليس من أجل خدمة الآخرين بطبيعة الحال ولكن بهدف الحصول على أكبر قدر من المنافع والمصالح وإشباع أكبر قدر من اللذات والرغبات وهو الأمر الذى يضر بالمجتمع بشكل عام وبالأفراد بشكل خاص لأن الوصول للسلطة كما يعتقد أفلاطون لابد أن يتضمن نوع من الإيثار والزهد والرغبة فى عمل الخير للآخرين دون تحقيق منفعة ذاتية أو إشباع هوى ورغبة ولذا يقول:

«فى معظم الدول الحالية يدب الصراع بين الناس من أجل ظلال ويتنازعون السلطة وكأنها خير عميم، على حين أن الدولة فى الواقع لا تكون خير الدول وأصلحها حكماً إلا إذا

تولى زمام الأمر فيها ازهد الناس بينما يحدث عكس هذا فى الدول التى يحكمها عكس هؤلاء».[٣]

يتهافت الناس فى الحصول على السلطة - فى رأى أفلاطون - على الرغم من أنهم لا يعرفون فن الحكم وليس لديهم الوعى لمقتضيات إقامة العدالة التى تتضمن فى غالب الأمر نبذ الرغبات الشخصية والأهواء، وهكذا يدعى كل منهم القدرة على ذلك فهم:

«لا يكفون عن التشاحن على السيطرة بحيث يدعى كل منهم أن له وحدة الحق فى الإمساك بالدفة. مع أن أحداً منهم لم يتعلم فن قيادة السفن قط ولا يستطيع أن يدلك على الأستاذ الذى تلقى على يديه هذا الفن أو ينبئك متى تعلمه والأدهى من ذلك أنهم يقولون أن هذا ليس بالفن الذى يمكن تعلمه».[٤]

(ب) غياب القدوة الصالحة

لاحظ أفلاطون أنه فى ظل هذا الصراع على السلطة بين الناس ابتغاء للحصول على أكبر قدر من المنافع وتحقيق المصالح الذاتية وعدم النظر بعين الاعتبار إلى صالح المجموع أو الدولة، وفى ظل غياب العدالة بغياب الحاكم الواعى والمستنير فإن الناس لا تجد القدوة الصالحة التى يمكن أن تجسد لهم المعانى الجميلة والقيم الخيرة، والتى تضع لهم مقياسا للاقتضاء به أو السير على النهج الذى رسمته أو ترسمه أمام الناس، ولذا يشير إلى وضع الناس فى هذه الحالة على أنهم:

«لا يتعلمون ولم يعرفوا الحقيقة مادام لا يعرفون فى حياتهم مثلاً أعلا يمكنهم توجيه أفعالهم الخاصة والعامة نحوه».[٤]

ويؤكد أفلاطون أن هذه الحالة التى يسود فيها الصراع على السلطة دون النظر إلى الوعى أو المعرفة تجاه فكرة العدالة أو عمل التوازن بين طبقات المجتمع، فى هذه الحالة قد يقتحم ميدان السلطة فئة من الناس لا تبغى سوى الثراء الاستئثار بالثراء والنفوذ وهذه الفئة من شأنها ألا تضع شيئا يمنعها من تحقيق مأربها، ولذا يشتد الصراع على الحكم بشكل يقضى على هذه الفئة وعلى قيام الدولة الصالحة ويؤكد أفلاطون ذلك بقوله:

«إما حين يقتحم ميدان الشئون العامة أناس شرهون نهمون إلى إثراء حياتهم الخاصة، املين أن يختطفوا منها السعادة التى يتوقون، فعندئذ يستحيل أن تقوم حكومة صالحة إذ انهم سيتصارعون فى سبيل الحكم حتى تقضى هذه الحرب الداخلية عليهم وعلى الدولة بأسرها».[٦]

يعتقد أفلاطون أنه حين تتولى الحكم جماعة تسعى إلى الإثراء المادى والاستئثار بالثروة فإن استمرار هذه الحالة يؤدى إلى أن يزداد الغنى غنى والفقير فقراء وتؤمن الطبقة الفقيرة

بالأفكار التقليدية النابعة من العادات والتقاليد والقيم الأخلاقية المألوفة وتتمسك بهذه القيم فى ظل تمسك الجماعة الحاكمة بالاستئثار بالثروة، وبالتالى النفوذ، ولكن حال من التربص تكمن فى داخل الطبقة الفقيرة، فإذا واتت هذه الطبقة أى مناسبة أو فرصة للثورة قامت بها وحطمت بها الطبقة الغنية الحاكمة وأطاحت بها من الحكم.(٧)

(ج) ظهور طبقة تدير الصراع فى المجتمع

يسمح المجتمع فى ظل هذه الحالة من الفوضى والتكالب على الملذات وإرضاء الشهوات بظهور بعض الأفراد - طبقة من الناس - الذين يستطيعون معرفة القواعد ويلمون بالمبادىء التى يسير عليها المجتمع فى حياته اليومية، ومن ثم يقومون بتعليم الناس «يقومون بدور المعلمين» كيف يدبرون أمورهم فى حياتهم طبقاً لهذه المبادىء التى استطاعوا أن يصلوا إلى فهمها ووضع الأسس النظرية لها وتطبيق هذه الأسس، وعلى الرغم من أن هذه الفئة من الناس لا تأتى بشىء جديد - كما يشير أفلاطون - فهم يؤمنون أو يعملون بنفس المبادىء التى يعمل بها الجمهور أو العامة، ولكن قدرتهم وموهبتهم تكمن فى أنهم يعلمون لماذا يفعلون ذلك بينما الجمهور يتصرف دون علم ولا يسأل لماذا يسلك مثل هذا السلوك ويشير أفلاطون:

«أم تراك تعتقد، أن ثمة شبان يفسدهم السوفسطائيون: وأن هؤلاء السوفسطائيون الأفراد يستطيعون أن يفسدوا الشباب بمقدار ملحوظ؟ ألا تظن على عكس ذلك أن الجمهور الذى يقول هذا هو الذى يضم أكبر السوفسطائيون إذ يربى الصغار والكبار والرجال والنساء على إكمل وجه وينسجم مع الطبيعة التى يحب أن يراهم عليها».(٨)

ينتشر أصحاب هذه الفئة الواعية بين الناس ليقوموا بتعليمهم المهارات الخاصة بالصراع والتكيف مع المجتمع وخاصة المهارات اللغوية والعملية وكيفية التعبير عن الذات وإثبات الوجود ويصبح هؤلاء بمثابة المعلمين أو القدوة، ولا السلطة فى معظم الأحيان تجد نفسها فى موقف إما أن تحتمى فى هؤلاء المعلمين أو ذلك المناخ فى تكوين ثروات ضخمة ويجعلون من أنفسهم طبقة متميزة عن طبقات المجتمع الذى يتصارع أفراده فى ظل غياب رؤية واضحة.(٩)

هؤلاء المعلمون أو المربين يجعلون من أنفسهم قضاة أو مدافعين عن هذا المناخ الذى يجعلهم قادرين على تكوين الثروات مقابل تعليم الناس هذه المبادىء التى يتصرف الناس طبقاً لها دون وعى بها، ولذا يقوم هؤلاء بالدفاع عن هذه الحالة أو هذا الوضع أمام من يعارضهم أو يكشف عن جهلهم أو التناقضات الكامنة فى آرائهم وأفكارهم التى يدعون الناس إليها ويقوم هؤلاء بإيذاء أو بقهر من يقف ليظهر المضمون الأساسى لأفكارهم أو الكشف عن المعانى الحقيقية وراء ما يعلمونه من أفكار ويستخدمون مهاراتهم فى الإضرار بخصومهم، ولذا يشير أفلاطون إلى:

«إنه القهر بالأفعال، الذى يلجأ إليه هؤلاء السادة من المربين والسوفسطائيون عندما تعوزهم القدرة على الإقناع بالأقوال، ألا تعلم أنهم يحكمون بالحرمان من الحقوق السياسية وبالغرامة وبالموت على من لا يستسلم لآرائهم».(١٠)

يرى أفلاطون أن المجتمع يبتعد عن الصواب والحق فى ظل هذه الحالة طالما أن هؤلاء المربين - البعض منهم - الذى نصبوا أنفسهم معلمين لهذا المجتمع ويقومون بحماية المبادىء التى يقوم أو يعيش عليها الكثرة الفاسدة من الناس والتى تتصارع على الملذات والمنافع، ويعتقد أفلاطون أن السبب فى هذا الابتعاد عن الحق والصواب يرجع إلى عاملين رئيسيين: الأول هو الجهل وعدم المعرفة، والثانى هو الابتعاد عن النصيحة المخلصة بسبب سوء التنشئة مادام القائمين على هذه التنشئة لا يقولون بشىء غير ما يقوله العامة من الناس، ولذا يشبه أفلاطون هؤلاء المعلمين بإنسان يربى وحشا ضخماً يحاول التحكم فى حركته ويعلم كيف يستخدمه ويروضه ويقول:

«فيلاحظ بدقة حركاته الغريزية وشهواته، ويعلم من أين يؤتى وكيف يعامل، ومتى ولما يكون أشد شراهة أو أكثر وداعة وما معنى صيحاته المختلفة. وما هى الأصوات التى تهدئه أو تثيره، بعد أن يعلم كل ذلك من معاشرته له. يطلق على تجربته اسم الحكمة ويجعل منها مذهباً يعلمه».(١١)

يؤكد أفلاطون ما ذكرناه من قبل أن هؤلاء المعلمون أو هذه الفئة من الناس ليس لديهم شىء جديد عما يفعله الناس أو الكثيرة، وكل ما يفعلونه هو أنهم يستخدمون المعرفة التى لديهم للحصول على المنافع والثروات أو ما يمكن أن نطلق عليه استغلال الآخرين والاستئثار برؤوس الأموال فى ظل عدم وعى العامة والكثرة من الناس:

«هل ترى فارقا بين هذا الرجل وبين من يرى أن قوم الحكمة هو معرفة غرائز وأهواء الكثرة عندما تتجمع سويا».(١٢)

(د) موقف الفرد المستنير

يبين أفلاطون موقف الفرد المستنير وما ينتابه من حالات نفسية مختلفة قد تعتور الفرد المثقف أو مجموعة المثقفين بوجه عام فيأتى سلوكهم وأدائهم مطابقا للحالة أو لرد الفعل تجاه الموقف العام من الجمهور أو من المناخ الذى تغيب فيه العدالة، ولذا فهو يرى أن الطبائع التى تستطيع الفهم والوعى بما يجرى بين الناس قلة إلا أن هذه القلة قد لا تظهر بين الناس فى ظل هذا المناخ: **«الطبائع التى وهبت كل الصفات اللازمة لمن يود أن يغدوا فيلسوفا حقا. نادراً ما تظهر بين الناس».**(١٣)

هكذا يعتقد أفلاطون أن المستنيرين أو المثقفين الذين يمكن أن يكونوا ذوى دراية وفهم لما يحدث بين الجمهور عامة وفى الدولة خاصة أفراد قلائل أو هم قلة بين الناس وهؤلاء يتعرضون لمواقف صعبة كثيرة فى ظل غياب العدالة. الأمر الذى قد يجعلهم فى حالة ذهنية مضطربة، وهذا الاضطراب يؤدى بهم إلى الخضوع لآراء العامة من الناس أو الكثرة الجاهلة الذين:

«يصيحون ويصفقون حتى تردد الصخور والمكان كله صدى صيحاتهم، ويتضاعف وقع الاستحسان أو الاستهجان. فى مثل هذه الحالة كيف تنتظر أن تكون الحالة الذهنية».(١٤)

ويفهم من هذا أن أفلاطون يعتقد أن الرأى العام الذى يذهب إليه الجمهور فى ظل غياب العدالة يكون مجبرا لبعض المثقفين ويكاد يكون هو الرأى المسيطر على الجميع، ولابد للفرد المستنير أن يجد شيئا ما يستند إليه فى إتخاذ موقف تجاه ما يعتقد فيه الكثرة الجاهلة من الناس وإلا فسوف يتحول إلى مثل حالاتهم ويسير على منوالهم، ولذا يتسائل أفلاطون:

«أى تعليم خاص يستطيع أن يضفى عليه القوة التى تمكنه من مقاومة ذلك السيل الجارف. وعدم الاندفاع مع التيار، ألن يكون حكمة على ما هو صواب وخطأ مماثلاً لحكمهم؟ ألن يفعل ما يفعلون ويغدوا مماثلاً لهم فى كل شىء».(١٥)

(هـ) التخبط فى اتجاهات متعارضة

يلاحظ أفلاطون أنه على الرغم من أن المستنيرين يتصفون بصفات مثل الذكاء، والفهم، والشجاعة، والصبر، إلا أنهم فى ظل هذه الحالة من غياب العدالة وحصار العامة، وسيطرة الدهماء أو ما يصفهم بأنهم ذوى الطبائع اللينة والغرائز الدنيا فهم لا يستطيعون - أى المستنيرين - الوصول إلى الفكر الصحيح فى ظل غياب مفهوم واضح للعدالة من شأنه عمل استنارة بين الناس، ولذا فإن نفس الصفات الإيجابية تجعل أصحابها يتخبطون فى كل اتجاه دون الاستقرار على رؤية بعينها بل أنهم قد يتحولون بين اتجاهات متعارضة كل التعارض بشبب التشتت ولذا يقول:

« أن صفات مثل سرعة الفهم وقوة الذاكرة والحكمة والحيوية وما شابهها من صفات لا تقترن عادة بقوة النفس وثباتها على النحو الذى يتيح للمرء أن يحيى حياة هادئة منتظمة، بل أن حدة الذهن تولد استعدادا للتخبط فى كل اتجاه وفقدان كل استقرار».(١٦)

(و) الانعزال عن المجتمع

يميل الفرد المستنير فى ظل هذه الحالة الضاغطة من الجمهور وعامة الناس إلى الانغزال عن المجتمع وعدم المشاركة فى ميادين النشاط الاجتماعى والفكرى، وبالتالى عدم

القيام بالدور الذى تضطلع به المعرفة وهو دفع الناس إلى الحق والخير، وهذا ما يعتبره أفلاطون نتيجة لغياب مفهوم واضح عن العدالة فى المجتمع بحيث يقتفى الناس أثر هذا المفهوم فى حياتهم اليومية الفكرية والاجتماعية، ولذا يقول أفلاطون:

«ليس من المستغرب ألا يميل أولئك الذين علوا إلى هذا الحد إلى الانغماس فى شئون البشر».[١٧]

(ز) الاضرار بالمجتمع

وقد يستغل الفرد المستنير صفاته ومواهبه وقدراته ليس فى خدمة المجتمع كما تقتضى المعرفة فى رأى أفلاطون، ولكن فى الإضرار بالمجتمع وإلحاق الأذى به بطرق عديدة وهكذا تستخدم الصفات الإيجابية التى يمكن استغلالها فى خير المجتمع إلى إلحاق الأذى به ويفسر أفلاطون هذه الحالة ويقول:

«إن نفوسهم التعسة لديها بصيرة قادرة على النفاذ إلى قلب الأشياء التى تتجه إليها، فقدرة هذه النفوس على الرؤية سليمة، ولكنها مضطرة إلى تسخيرها فى الشر، ومن هنا كان شرها يزداد بقدر ما يزداد بصرها حدة ونفاذا».[١٨]

(ح) الصمت فى مواجهة عبث الوجود

عندما تزداد الهوة بين الفرد المستنير والمجتمع الذى يعيش فيه وتضيع الحقائق الموضوعية التى يمكن أن تقيم مجالاً للحوار والتواصل الاجتماعى بينه وبين الآخرين، وفى ظل غياب شىء يمكن أن يتصارع عليه الناس فيأخذ الصراع بينهم شكل تأكيد الذات وليس البحث عن حقيقة موضوعية تجمعهم ويقوم الآخرون باستخدام اللغة فى هذا الصراع، لكن اللغة فى هذه الحالة تصبح عاجزة عن أن تكون وسيلة مناسبة للتعبير طالما أنها وهى الوسيلة الأساسية للاتصال بين الناس لم تعد صالحة، لذلك فى ظل هذا الصراع، فقد يجد الفرد المستنير حينئذ أن الحل الأمثل لهذه المعضلة هو الصمت المطبق، وهو فى هذه الحالة يبدو وكأنه يقول لنا رامزاً أن الصمت هو أبلغ تعبير عن عبث الوجود فى ظل غياب الحقيقة والعدالة.[١٩]

(ط) الهروب إلى التجريد

إذا كان بعض الأفراد فى هذا المجتمع الذى يغيب عن ذهن الجمهور أو الكثرة فيه المفهوم الصحيح عن العدالة يحاولون الهرب من هذا الاجتماع بعدم الاشتراك مع المجموع فى النشاط الاجتماعى أو الثقافى أو الفكرى فينعزلون عن مجتمعهم أو يلتزمون الصمت، فإن البعض يهرب إلى التجريد ويفضلون أن يعيشوا فى ظل الساكن الثابت غير المتغير بدلاً من أن يعيشوا فى خضم تيار الحياة المتدفق السيال، ولذا فإن هؤلاء البعض يهربون إلى تيار من الفكر المجرد

والتساؤلات عن الوجود والمعنى والوحدة والكثرة، وقد يتخبط هؤلاء المستنيرين فى تيار من الفكر المجرد الذى لا يصل بهم إلى نتيجة واضحة فيتسألون أو يضعون التساؤلات حول ما إذا كان الواحد موجود؟ أو ماذا يحدث إذا غاب الواحد أو علاقة الوجود واللاوجود وينتهى الأمر بهم إلى نتيجة سلبية مؤداها أنه إذا كان الواحد موجود أو غير موجود فالأمر سواء، وهى النتيجة المباشرة للانسحاب من تيار الحياة المتدفق إلى برودة الوجود العقلى.[٢٠]

(ك) توظيف المعرفة لخدمة مصالح الذات الفردية

يشير أفلاطون إلى أن الفرد المستنير إذا استطاع أن يفهم موقفه على أنه محاصر من جهة العامة والغوغاء وأنه يواجه تيار لا قبل له به ولا يستطيع أن يصمد بمفرده أمام ذلك التيار، فهو لا يستطيع استخدام المعرفة بشكل يفيد المجموع إلى جانب أنه محاصر بالآراء التى لا تستند إلى أى معرفة أو وعى، وهكذا فهو لا يستطيع من جهة أن يشارك الكثرة فى حياتها ولا يستطيع من جهة أخرى أن يمارس ما تفرضه عليه المعرفة من دعوة إلى الحق والخير فإذا ما تملكه اليأس فإنه ينغمس فى شئونه الخاصة بعيداً عن بقية المجتمع ويستخدم المعرفة التى حاز عليها فى الحصول على المنافع وتحقيق مصالحة الشخصية ويصف أفلاطون هذه الحالة فيقول:

«أن حاله سيكون كحال من وقع وسط وحوش ضارية فلا هو يقبل أن يشاركها وحشيتها ولا هو يستطيع أن يصمد وحده أما كل هذه الحموع الشرسة، ويتأكد لديه أن مصيره سيكون الفناء دون أن يكون قد نفع وطنه أو أصدقائه ولا نفسه ولا غيره، أقول أن من يدرك بذهنه كل هذا سيخلد إلى السكينة وينصرف إلى شئونه الخاصة».[٢١]

أن اختلاف طريقة التفكير بين العامة والجمهور وبين المستنير، وكذلك طريقة النظر إلى الحياة والقيم وطبيعة الأشياء تمثل سببا آخر لعزلة المستنير وانصرافه إلى شئونه الخاصة، فالعامة من الناس غالبا ما تزن الأشياء بميزان النفع والمصلحة الذاتية ومقياسها الأساسى اللذة ودفع الضرر فى حين الفرد المستنير فى معظم الأحيان يعتمد على الفكر المنظم والترابط المنطقى والتناسق العقلى بين المقدمات والنتائج، ولذا فتنتابه حيرة دائمة بين أن يبقى وسط الناس أو يعتزلهم وينخرط فى شئونه الخاصة ويشير أفلاطون إلى هذه الحالة شارحاً لها بقوله:

«إن الشخص الذى يلتزم ذهنه حقائق الأشياء. لا يتوفر له من الفراغ ما يجعله يهبط بانظاره إلى أمور الناس، ويشارك فى معاركهم. ذلك لأنه يتأمل أموراً يسودها النظام والثبات، ولا يسعى واحداً منها إلى الإضرار بالآخرين. وإنما تخضع كلها لقانون النظام والعقل».[٢٢]

هؤلاء الذين يصلون إلى هذه الحالة من الاستغراق فى التفكير المجرد واللجوء إلى برودة العقل عوضاً عن الخوض فى تيار الحياة المتدفق أملين أن يجدوا أماناً واطمئنانا مع الثابت غير المتغير، هؤلاء لا يستطيعون العودة إلى المجتمع الذى هجروه أو انعزلوا عنه ورفضوا أن يشاركو فيه لأنهم يعيشون فى حالة نفسية لا يمكن معها قبول العودة لما تركوه مرة أخرى ورائهم لأنهم يشعرون بسعادة غامرة فى ظل تواجدهم مستغرقين فى تأملاتهم المجردة التى تعطى لهم الشعور بالسعادة وهى سعادة زائفة فى رأى أفلاطون لأنهم يسيرون وكأنهم:

«يحلمون بأنهم قد استقروا نهائيا وهم مازالوا أحياء فى جزر السعداء».(٢٣)

ويعتقد أفلاطون أن هذه الفئة التى استغرقتها الأفكار المجردة وعاشت حالمة فى ظل هذه الأفكار الخالصة مثلها مثل الفئة الأولى والتى استغرقتها الحياة المليئة بالملذات وإشباع الأهواء وتلبية الرغبات والصراع على المصالح فكلاهما لا تصلحان للحكم ولا لقيادة المجتمع وكلاهما إفراز طبيعى لغياب العدالة أو المفهوم الحقيقى للعدالة بين الناس وفى الدولة ولذا يقول:

«من المؤكد بعد ما قلناه، أن حكم الدولة أمر لا يصلح له أولئك الذين لم يتعلموا ولا يعرفوا الحقيقة، ولا أولئك الذين يقضون حياتهم كلها فى الدراسة، مادام الأولون لا يعرفون فى حياتهم مثلاً أعلى يمكنه من توجيه كل أفعالهم الخاصة والخاصة نحوه، والآخرون لن يقبلوا إذا استطاعوا . أن يشغلوا أنفسهم بالحكم . إذ يحلمون بأنهم قد استقروا نهائيا وهم مازالوا أحياء فى جزر السعداء».(٢٤)

(ل) التآمر على المستنير والتخلص منه

يعتقد أفلاطون أن للمعرفة قوة ضغط على العارف ولذا فما أن يصل المرء إلى معرفة حقيقة إلا ويجد فى نفسه الرغبة أن يعلن هذه المعرفة للآخرين، وهذا هو الموقف الذى يصطدم فيه المستنير مع مجتمع تتفشى فيه الفوضى والجهل وتسود فيه الفردانية فى ظل غياب العدالة، وعندما يحاول الفرد المستنير أن يفسر أو يشرح أو ينبه أو يحذر الناس من مغبة الجهل بالأشياء أو التنبيه إلا أنهم يضلون الطريق فإنه سيواجه بمواقف كثيرة من الكثرة الجاهلة، فقد يواجه بالتجاهل والسخرية فى بادىء الأمر سواء بسبب جهل الآخرين بما يدعوا إليه أو بسبب رفضهم تغيير طريقة السلوك وفهم الحياة. ومن ثم فإن الآخرين . وهم العامة والغوغاء . سيقولون أنه قد أفسد عقله وتفكيره.

«ألن يسخروا منه، ويقولوا أنه لم يصعد إلى أعلى إلا لكى يفسد أبصارهم، وأن الصعود أمر لا يستحق منا عناء التفكير فيه».(٢٥)

أن الكثرة المستغرقة فى الجهل والفوضى ترى أن الترقى فى مجال المعرفة والصعود فيه

أمر لا يستحق منها الاهتمرام أو بذلك الجهد بل أن من يفعل ذلك تصبح حالته مغايرة لما ينبغى أن يكون عليه، وما ينبغى أن يكون عليه هو أن يندمج معهم فى طريقتهم فى فهم الحياة والنظر إلى القيم والأخلاق.

أن الأعراض والتجنب هما الطريق الذى سيقابل به الإنسان المستنير من الناس ـ الكثرة ـ طالما أنهم لا يجدون لحياتهم معنى آخر يعيشون من أجله سوى الصراع وتبادل المصالح والمنافع والتهافت على الملذات، فإذا حاول أن يلفت نظرهم إلى وجود معنى آخر من الأفضل أن يعيشوا فى ظله بدلاً من الفوضى والعبث فلن ينصتوا إليه بروح جادة، ولكنهم سيحاولون إغرائه لترك ما يدعوا إليه والسير على نهجهم وطريقتهم وتتعدد وتختلف طرق إغرائه لأثنائه عن رسالته التى تفرضها عليه المعرفة فقد يعملون على رشوته بالمال أو بالمناصب أو بالجوائز أو إغراقه فى اللذة فإذا رفض أن ينصاع لمطالبهم فإنه سيتحولون إلى السخرية منه ووضعه موضع الاستهزاء والتقليل من شأنه.

«هل تظن أنه من المستغرب أن تبدو على المرء مظاهر الحيرة ويصبح مدعاة للسخرية إذا انتقل من تأمل هذه الأمور الإلهية إلى بؤس الحياة البشرية».(٢٦)

إذا أصر ذلك الإنسان المستنير على المضى قدما فى رسالته والتأكيد على أنه صاحب دعوه من شأنها تنوير عقول الآخرين المنهمكين فى اللهو والعبث بحقيقة أخرى مخالفة لما يعيشون عليه من قيم وأخلاقيات وما يعيشون من أجله من أهداف وسار يهزأ بهم أو يعرض لمبادئهم أو طريقتهم فى الحياة أو بالمعلمين الذين تربوا على أيديهم ونشئوا على تعاليمهم ـ فإنهم فى النهاية سوف يلحقون به الأذى أو يتآمرون عليه للتخلص منه ويفسر أفلاطون ذلك بقوله:

«فإذا ما حاول أحد أن يحررهم من أغلالهم ويقودهم إلى أعلى واستطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه: ألن يجهزوا عليه بالفعل».(٢٧)

يؤكد أفلاطون المعنى السابق ذكره أن المعرفة تقوم بدور ضاغط على المستنير وأنها بهذا الشكل تضعه فى مواجهة مع الكثرة الجاهلة فى حالة غياب العدالة، وهكذا يشتد الصراع بين الجهل والاستنارة هذا الصراع الذى ينتهى فى معظم الأحيان بالتخلص من المستنير ويشير أفلاطون إلى هذه الحالة فيقول:

«لو حدث بفضل معدنه الطيب الذى يستجيب لصوت العقل أن استسلم للقوة التى تجذبه إلى الفلسفة ورضخ لها. فماذا يظن أولئك الذين يعتقدون أنهم سيحرمون من خدماته وصدقته فاعلين؟ ألا يلجأون إلى كل ما فى جعبتهم من الأفعال والأقوال منه ليثبتوا عزيمته وعزيمة من يقدم النصح له. ليقضوا على جهوده سواء بالتآمر عليه فى حياته الخاصة أو باضطهاده فى الأماكن العامة؟».(٢٨)

الخاتمة

يعتقد أفلاطون أن فساد الدولة يعنى فساد مواطنيها، والدولة تنتهى إلى الوضع الذى هى فيه بفعل ذلك الطراز من العقل الذى تمثله، فالدولة المثالية إنما تمثل طرازا من العقل يتحقق فيه اتصاق كامل بين الملكات والدولة الفاسدة تتصف بالفساد قلة أو كثرة لأنها تمثل طرازا من العقل اختل فيه هذا الاتصاق قلة أو كثرة، كما أن التكوين المنطقى للدولة قد أخلى فيه عامل سيكولوجى ونشاهد كيف تتدهور الدولة إذا مازال منها عامل سيكولوجى بعد الآخر حسب الأهمية، وكما أن عامل القوة العقلية كان آخر ما يضاف عند بناء الدولة فكذلك يكون هذا العامل هو أول ما ينسحب من الدولة فى الوضع العكسى أى عند انهيارها.

يظن الباحث أن هذه الأمور السيكولوجية التى يشير إليها ايرنست باركر والتى يمكن وصفها بالسيكولوجية الأخلاقية، لأن دولة أفلاطون تقوم على أساس سياسى أخلاقى يضاف إليه تقسيم العمل، هذه الأمور واضحة المعالم تماما فى تكوين الدولة وانهيارها إذا ما نظرنا إلى دولة حكم الفلاسفة التى تعتمد على الحكمة والقوة العاقلة ثم دولة التيموقراطية التى تعتمد على الشجاعة وحب المال والثراء إلى دولة الأولويجارشية التى تعتمد على حب المال والاستئثار بالثروة إلى دولة الديمقراطية التى تتيح فعل أى شىء فى إطار من الفوضى وسلطان حكم الغوغاء كما يعتقد أفلاطون حتى ننتهى إلى حكم الطاغية الذى يترك العنان لنفسه فى عمل كل الإثام وتبرير إشباع كل الشهوات والرغبات، وخاصة العدوان على الآخرين.

ونحن نظن أن ردود فعل الأفراد تجاه غياب العدالة فى المجتمع بعد زوال دولة الفلسفة أو حكم الفلاسفة والتى يكتمل فيها مفهوم العدالة من الناحية السياسية والأخلاقية أن ردود الأفعال تنحصر بين طرفين بينهم تطرف شديد فإما الاستغراق فى اللذة والصراع على السلطة والنفوذ أو الاستغراق فى الأفكار المجردة هربا من زخم الحياة المتدفق والسيال، ومد بين هذين النمطين نشاهد الصراع بين الاستنارة والجهل وحصار العامة والغوغاء للمستنير إما لتحيته عن الرسالة التى تفرضها عليه المعرفة وهى التنوير والإرشاد واسداء النصيحة فإذا ما أصر على تأدية الرسالة قام بأفعال من شأنها التآمر عليه والتخلص منه يقودهم فى ذلك هذه الطبقة من المستنيرين الذين يحصلون على الثروة والنفوذ من إدارة الصراع فى صالح الغوغاء والديماجوج ضد قيم الاستنارة والمعرفة والفضيلة.

الهوامش:

(١) جمهورية أفلاطون، ٤٧٣ج، ترجمة فؤاد زكريا، ص٣٦٧

(٢) المرجع السابق، ٤٩٩ د. هـ

(٣) جمهورية أفلاطون، ٥٢٠ هـ

(٤) المرجع السابق، ٤٨٨ أ. ج

(٥) جمهورية أفلاطون، ٤٨٨ ج. د.

(٦) المرجع السابق، ٥٢١ أ

(٧) ايرنست باركر، النظرية السياسية عند اليونان.

(٨) جمهورية أفلاطون، ٤٩٣ ب. ج.

(٩) يقال أن جورجياس السفوسطائى كون ثروة ضخمة من تعاليمه للشباب، واستغل هذه الثروة وقام بعمل تمثال لنفسه بالحجم الطبيعى من الذهب الخالص.

Kathleen Freeman: The Sophists. p.47.

(١٠) جمهورية أفلاطون، ٤٩٢ د. هـ

(١١) المرجع السابق، ٤٩٣، ب. ج.

فى رأى أفلاطون أن هذا هو ما فعله السفوسطائيون الذين انتشروا فى المدن اليونانية يعلمون الناس اللغة والخطابة من أجل تأكيد الذات، والتعبير عن النفس والذى يتطلبه الصراع الاجتماعى الذى جاء نتيجة لما سمى بالديمقراطية.

(١٢) المرجع السابق، ٤٩٣ ج.

(١٣) جمهورية أفلاطون، ٤٩١ أ. ب.

(١٤) المرجع السابق، ٤٩١ ج. د.

(١٥) المرجع السابق، ٤٩٢ ج.

(١٦) جمهورية أفلاطون، ٥٠٣ ج.

(١٧) المرجع السابق.

(١٨) المرجع السابق، ١٥١٩.

(١٩) هذا ما فعله أقراطيلوس حينما ظهرت له عبثية الوجود المتغير السيال على الدوام، فرأى أنه من الأفضل الصمت تجاه ذلك العبث وهذا الغموض، وتشير د. أميرة مطر إلى أن أقراطيلوس أخذ بفكرة التغيير المطلق إلى حد رفض الكلام واكتفى بالإشارة، وقد تأثر أفلاطون بأقراطيلوس وكتب محاورة عن اللغة باسمه. د.أميرة حلمى مطر، الفلسفة اليونانية، دار المعارف، القاهرة، طبعة معدلة ١٩٨٨، ص٦٤.

(٢٠) موضوع محاورة بارمينيدس هو التفكير العقلى المحض ويدور حول الوحدة والكثرة والوجود واللاوجود، وقد كان بارمينيدس هو المتحدث الرئيسى وسقراط هو التلميذ المستمع، وقد اخذنا هذه المحاورة كنموذج للتفكير المجرد وتأمل الوجود واللاوجود فى ظل غياب العدالة، وقد كانت نهاية المحاورة نهاية سلبية وهى تتماشى مع رؤية أفلاطون والتى نظن أنها تجد فى التفكير العقلى الخالص اتجاها يظهر تناقض العقل حين يصبح وجود الواحد أو عدم وجوده سواء من الناحية العقلية المنطقية لأن أفلاطون يرى أن العقل ينبغى أن يرتفع درجة أخرى وعلى المفكر أن يشحذ همته بعد ذلك حتى يصل إلى الرؤية المباشرة للحقيقة أى الحدث بالحقيقة.

(٢١) جمهورية أفلاطون، ٤٩٦ ج. د.

(٢٢) المرجع السابق، ٤٩٨ د. هـ.

(٢٣) جمهورية أفلاطون، ٥١٩ ج.

(٢٤) المرجع السابق، ٥١٩ ب. ج.

(٢٥) جمهورية أفلاطون، ٥١٦ هـ.

(٢٦) المرجع السابق، ٥١٧ د. ج.

(٢٧) المرجع السابق، ٥١٦ هـ.

(٢٨) جمهورية أفلاطون، ١٥١٧. الصراع بين الجهل والاستنارة يتجسد بشكل عميق فى اسطورة الكهف أو ما يسمى الكهف وكما يقول د. فؤاد زكريا فإن تشبيه الكهف اشبه بمقارنة بين نمطين من الحياة، حياة تفتقر إلى الاستنارة مع الظلام داخل الكهف وحياة مستنيرة تدرك حقائق الأشياء فى ضوء الشمس، وهو بالتالى مقارنة بين نوعين من القيم لا يعد أحداها وجهاً سلبياً للآخر فحسب. بل يعد حالة فعلية يعيش فيها أغلب البشر، يدافعون عنها بكل ما اوتوا من قوة ويضطهدون كل من يحاول انتشالهم منها، أى أنها حالة إيجابية منحرفة يجد فيها الناس رضاءاً فعلياً ويستمتعون فيها بملذات خاصة تقف فى مواجهة المتعة التى يجدها الفيلسوف فى حياته ويستمدها من قيمه، ففى الكهف إذن نظام متكامل يعمل على إرضاء هذا المزاج المفتقر إلى الاستنارة والدفاع عن قيمه ضد كل نزوح فلسفى إلى الحقيقة، وبالاختصار فالكهف يصور الصراع الأزلى بين قيم الحياة الفلسفية وقيم الحياة اليومية السطحية، وهو صراع قد يدور فى داخل الفرد نفسه مثلما يدور بين فئات البشر.

- د. فؤاد زكريا: جمهورية أفلاطون، دراسة وتقديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص١٥٠.